

الاستعمار والحضارة

بقلم الكاتب الانكليزي ليونارد ولف

تلخيص وتعليق : لمعاوية نور

يلتقي ليونارد ولف الى رهط كريم من كبار مفكري الانكليز الاحرار في العصر الحاضر ، ذلك رهط الذي ينتظم فيه ولز وشو وبرتزان رسل وهارولد لاسلكي وسدني ويب واندادم من « الاتلجنسيا » ذات التفكير الحر . وانه لمن الدلائل الطيبة التي تذكر لهذا العصر ان بعض ملثائه وفلاسفته ورجال الفنون فيه قد اهتموا بمسائله الاجتماعية وجعلوا لها نصيباً كبيراً من تفكيرهم وعنائهم . فزى ولز القصصي الاديب في عهدنا الاخير لا يكتب حرفاً واحداً الا بهدفه الاصلاح الاجتماعي ، وزى برتزان رسل يهجم امر الثورة في الصين ويكتب في الشؤون الهندية مثل اهتمامه بالفلسفة الرياضية وسببات التفكير المجرد ، ونظير الى صديقنا العالم البيولوجي الغد جريلان هكسلي يشتمل بالشؤون الافريقية ويحدد لها مكاناً رحيباً الى جانب الحديث عن التطور وخصائص الاحياء والوراثة وما اليها من الشؤون العلمية . فهذا عصر علماء ادياء ، وأدباؤه علماء وفلاسفته يشتغلون بالصحافة ، ومخافته لا يفوتها الاشتغال بالعلم والرياضة ودراسة التلك . ولعل هذه النزعة الانسانية الجديدة « New Humanism » هي من ارق ما تعضت عنه الحضارة الغربية في طورها الاخير . هذه النزعة التي ترى العلم والفلسفة والسياسة والادب والصحافة وحدة انسانية من اسمي اغراضها خدمة النوع الانساني « Homo sapiens » والى العناية بروح الانسان وجسمه . واذا كان للانسانية أن تعلم وللحالة الراهنة ان تبقى فهي بلا شك مدينة لهذا الروح الجليل ، الذي يذكى في اميركا « بابت » و« ممفورد » وفي انكلترا « هكسلي » و« ولز » وفي فرنسا « رومان رولان » وفي اشرق امثال « طاغور » . فهؤلاء الكتاب يعينهم شأن الانسان اكثر مما تعينهم شؤون اوطانهم الضيقة ، ويعينهم مستقبل الحضارات الانسانية اكثر مما تعينهم سيادة اوربا او اميركا ، ويهيمهم ان تكون علاقات الشعوب بعضها مع بعض طيبة الاواصر ، خيرة الانتاج في احترام متبادل وعطف سام . فهم يخافون ويتوجسون شراً من بواعث المنافسة الرخيصة ، والتمداء الجنسي والتمس ، وعوامل الظلم والجشع ، والاستغلال المادي التصير النظار ، وطغيان السياسات العمياء التي دفعت بالعالم

الى الحرب الكبرى وهي عني وشك أن ترديه في حرب مثلها أو أهول وأخطر نتائج . فهو لاول الكتاب يكتبون الكتب ، وينشرون المحاضرات ، وينشرون المقالات في انصحف في هذا المعنى ، وليس الآن مجال الحديث عن النزعة الانسانية الجديدة بالشرح والافاضة ، وانما نحن هنا بسبيل الحديث عن كتاب واحد كتبه مؤلفه حديثاً عن الاستعمار والحضارة ، عرض فيه لمشكلة الاستعمار الاوربي الحديث في قارتي افريقيا وآسيا ، وعلاقة ذلك الاستعمار بالحضارة الاوربية الراهنة وعلاقة تلك الحضارة في زيتها الصناعي المادي بكان افريقيا وآسيا ، وتناول أسباب ذلك الاستعمار الحديث ومعاجباته ، وأخيراً بحث في ما نتج عنه وما أتى به من مساويء ومشكلات ، وما سوف يخلفه من متاعب وصعاب وما سيؤول اليه العالم من خراب محقق ان هو استمر على خطه وأصاليه المعبودة . وقد اخترت هذا الكتاب بينه للتحدث عنه لقراء العربية لعلاقته الوثيقة بأهم ما يشغل بالهم من المشكلات والحركات القومية ولكي يروا كيف يعالِم هذه المسائل ذهن عالم صاني التفكير ، ناصع الاسلوب مستقل الرأي غير متحيز لأمة أو ثقافة أو حضارة ، وانما هم الاكبر جلاء الحقيقة وعبادة الحق كما يبدو له

يقول الكاتب ان الحضارة الاوربية الحديثة هي شيء مختلف كل الاختلاف عن كل الحضارات التي سبقت القرن التاسع عشر ، بعد أن تحطمت الحضارات التي كانت ترتكز اشدها تركيزاً على الملوكية والارستقراطية من جراء الغناء الذي صحبها ومن جراء الثورة الفرنسية ثم الثورة الصناعية التي قامت عليها الحضارة الراهنة حضارة الديمقراطية الحديثة والنظم البرلمانية ، والمعدل والآلة والقطار والطيارة والنور الكهربائي . فتضخمت الصناعة في اوربا ، واشتد التنافس بين دولها لما ضاقت بهم سبل التوزيع والتجّاح المادي . فاضطرت تلك الحضارة ان تبحث عن اسواق جديدة لصناعاتها وجلب المواد اللازمة للانتاج والعمل . ومن هنا شعرت اوربا بحاجتها الى سائر العالم اذا كان لها أن تتجّح في نظمها الجديدة ، فتنافست الدول الاوربية في الاستئثار بالانقطار الاسيوية والافريقية لتجعلها ملاحق لتجارها وصناعاتها . وصاغدها على ذلك سرعة المواصلات التي سهلت امر اختراق البلدان النائية وربط العالم كله ببعضه ببعض . وهذا من أهم الاسباب التي اسبغت على الحضارة الراهنة خصائصها . فقد كانت صعوبة المواصلات في الماضي تحول دون اي حضارة مهما كانت قوية بمثابة ان تجتاح بقية الحضارات او تجبرها على الاخذ بها فكانت العزلة تامة بين اسيا وأفريقيا من حيث اساليب العيش وسبل الحياة والتطور الذي وقع في اوربا بين طلي ١٧٥٠ و ١٨٥٠ وهذا تطور عظيم هائل لم تشهد مثله البشرية في كل تاريخها المعروف . ولعله اعظم قفزة قفزها الانسان

ولما كانت الحضارة الراهنة حضارة صناعية في صميمها ، كذلك كان الاستعمار الحديث اقتصادياً صناعياً في دوافعه وموجباته ، ولم تستطع اسيا و افريقيا ردّ الة لانه انماها حفاة بقوة ووسائل ليست في طاقتها ولا هي تتدخل في دائرة معرفتها واختيارها . فهي في الواقع حضارة استعمارية غازية

بمعدتها الحربية الجديدة وطرق مواصلاتها السريعة . وقد كانت الوسائل الأولى في ذلك الاستعمار عن طريق التجار وأصحاب رؤوس المال والشركات المختلفة يمزج من مركز مقامها دول حربية قوية ، ويقول المؤلف أن حادثة الاستعمار هذا لعله أعظم حادث عرف في التاريخ من حيث السرعة والشمول . ففي خلال مائة عام أي من ١٨١٤ - ١٩١٤ استطاعت أوروبا أن تخضع القارة الآسيوية والأفريقية وجنوب أمريكا لسلطانها الذي لا يمازح

وقد كان الاعتماد السائد في أوروبا أن هذا الاستعمار هو الشيء الطبيعي وأنه في صالح الشعوب الأجنبية أكثر منه في صالح أوروبا إلى أن وقعت الخيبة أمام الطليان في عام ١٨٩٦ فدافقت عن أرضها دفاع الأبطال وهزمت الطليان شر هزيمة ثم تلا ذلك حادث تقاب اليابان على روسيا عام ١٩٠٥ ومن هنا ابتداء التشكك في قيمة الحضارة الأوروبية عند بعض الأوروبيين . فإن انتصار اليابان على روسيا يعد نقطة تطور كبير في تاريخ الاستعمار الحديث ، إذ فهت أوروبا لأول مرة أن فتحها وغزوها للعالم بأكمله قد تلاه رد فعل قوي من العالم بأكمله ، ثم جاء نجاح اليابان وارتفاعها إلى مستوى الدول الأوروبية الكبرى حافظاً ألب حامية العالم الآسيوي والأفريقي ودفع به إلى التفتت من أمر هذه الحضارة الجاحدة حقوقه التي فرضت عليه فرضاً واستعرت عوامل البغض والكراهية ضد الحضارة الأوروبية وسبلها المختلفة . ويمكن أن يقال أنه إلى مستهل القرن العشرين لم تقم حركة قوية تناهض الاستعمار الأوروبي . غير أننا نرى الآن أن معظم البلدان الآسيوية قد تحررت أو كادت تتحرر من السلطان الأجنبي ، فتركيا والصين والعجم هي الآن في ثورة فاجحة ضد الاستقلال الأجنبي ، وفي الهند اضطراب قوي رغم كل الإصلاحات الدستورية والحركة الهندية الآن لا ترضى بأقل من الاستقلال التام

وقد رفض الوفد في مصر بأهامة منحة استقلال زائف وما زال يطالب باستقلال البلاد استقلالاً تاماً ، وفي فلسطين حركة عربية واسعة النطاق . وفرنسا تجرد المصاعب الدائمة في تونس ، وسوريا تلهب حماسة وثورة ضدها . وقصة عبد الكريم وقيامه ضد فرنسا وإسبانيا في الريف ما زالت مثالة للأذهان . وفي أفريقيا نشأ شعور قوي ضد الاستقلال الأجنبي والسلطات الأوروبية . والمؤلف يعتقد أن سبب كل ذلك هو تصادم الثقافات ، وعنده أن مشكلة الاستعمار الحديث إنما هي مشكلة زراع عفيف بين حضارة صناعية آلية لا بد لها من الاستعمار في نجاحها وبين حضارات لا تريد القضاء فيها والشيء الجديد في هذا النزاع أن العالم لم يشهد زراعاً في الحضارة بلغ من الشدة والظلم مثل ما هو عليه الآن . وذلك لأن من خصائص الحضارة الأوروبية الراحة التي تظن على كل النظم والمؤسسات الاجتماعية في الحضارات الأخرى ولا تعرف التساهل أو الهوانة في فرض أمرها واتباع سبلها ، وهي تقوم على القوة الحربية في أساليبها والتنافس الاقتصادي العنيف في نسيجها

ويعتقد ليونارد ولف ان الذين يقولون بأن النزاع الحالي بين اوربا وبقية العالم إنما هو نزاع جنسي او ديني او وطني إنما هم على خطأ واضح ، ذلك لان العوامل الجنسية والدينية والوطنية غالباً ما تظهر على أنها عوامل هامة في هذا النزاع لظهورها ، والحقيقة ان ليس الجنس ولا الدين او الوطنية العامل الاول ولا العامل المهم في هذه الظاهرة . إنما يقول طغيان الحضارة الاوربية واساليبها في الاستعمار والاستقلال هو الذي أذكى نار الثورة في الصين والتايلاند في الهند ومصر والتجديد في الدولة التركية وبعض العالم الاسلامي لدول اوربا جميعاً . والذين يخيل اليهم أنهم يستطيعون تفسير تاريخ الشعوب والحروب والحركات الانقلابية وتفوق بعض الشعوب على البعض الآخر بلون الجلد والبشرة يتحققون الاستحقاق والريية ، فاليابان بمدان أصبحت دولة مستقلة لا زارها تستقر مثل هذا العداء للرجل الابيض الذي يشر بثله الرجل الصيني . اليابانيون بكرهون الامريكيين لان بينهم خصومة استعمارية دائرة على توازن لتقوى الحرية في المحيط الباسفيكي . والنزاع الجنسي ما هو الا ظاهرة سطحية يوجد بها الشعور بالنفي والسيطرة الاقتصادية وليست هي في نفسها بذات قيمة . وكل من يدقق النظر في الحوادث التي تقع الآن في الشرق الاقصى يرى ان السبب الجوهرى فيها نزاع بين الحضارات

فالحضارة الاوربية الراهنة في مظهرها الاستعماري الحربي الاقتصادي قد هدت حياة تلك الشعوب ورفاهها وسبل عيشها وعلاقتها الاجتماعية بالزوال . وليس عجيباً ان تدافع تلك الحضارات الهادئة التي لا تعتبر المادة ولا ترى رأينا في المنافسة الصناعية وقوة المال ضد المعتدين عليها . ومهما اتخذت تلك الثورة من ألوان الوطنية او زى الجنس والدين فان مصدرها بلا جدال هو اختلاف يسير في اسلوب الحياة ارادت الحضارة الراهنة القضاء عليه

يجب ان لا يعزب عن البال ان كيان الحضارة الاوربية الراهنة يقوم على التنافس الاقتصادي الصناعي ، واتنافس الاقتصادي لا يعرف سوى مبدأ الربح المادي للفرد سوالات في اوربا او في آسيا وافريقيا . غير ان مثل ذلك الاستغلال غير ممكن في اوربا لقرب مستوى شعوبها في الوسائل والطرق بعضها من بعض . وأوروبا لا تحس بوطأة مساوية حضارتها لانها متجانسة قريبة بعضها من بعض . ولكن آسيا وافريقيا تحس بها احساساً يهدد حياتهما ويكاد يقتلها . والحضارة الراهنة التي انحبت الاستعمار في آسيا وافريقيا وخلقت مصائبه ومشكلاته هي بعينها التي خلقت مشكلات الحروب البشرية والاقتصادية بين الدول الاوربية نفسها

فساوية الحضارة الاوربية قد ابتدأت اوربا نفسها تحسها في هذا ما ان سكان اوربا لم يشهدوا جرنلها المبتدلة مثل ما شهد سكان آسيا وافريقيا . وهذا الفرق في الحضارة الصناعية الآلية قد بقود في اوربا الى نزاع عنيف بين انجلترا وفرنسا مثلاً اذا كانت الاولى قوية جداً في وسائل

الصناعة ومعدات الحرب وكانت الأخرى لا حول لها ولا سلطان من كل ذلك . فمشكلة إذا ليست مشكلة جنسية ولا دينية ولا قومية . وإنما هي مشكلة من صميم الحضارة الراهنة وسببها ووسائلها . وفكرة الوطنية نفسها هي من نتائج الحضارة الأوروبية الحديثة فهي غير معروفة في آسيا وأفريقيا بمعناها الحديث . فإذا كانت الشعوب الآسيوية والأفريقية تستعملها فأما كان ذلك كذلك لأنها تستعمل وسائل هذه الحضارة وسبلها لتتحرر منها . كما وقع في اليابان وتركيا مثلاً

وقد عقد الكاتب فصلاً عن تصادم الثقافات فيما قبل القرن التاسع عشر وتكلم عن الحضارة الرومانية والاستعمار الروماني فأبان الفرق التاسع بين الاستعمار الروماني والاستعمار الحديث . ففي ذلك الاستعمار لم يرغم روما بقية العالم على أخذ حضارتها والعمل بمقتضاها، وإنما كانت تترك لهم كامل الحرية في معظم طرق معيشتهم وحياتهم ذلك لأن حاجة الرومان إلى الفتح لم تكن اقتصادية صناعية وإنما كان دائمها الأول هو حب الفتح ومطامع الملوك في السلطان والتوسع الحربي وليس معنى ذلك أن الحضارة الرومانية لم تنتزع بالحضارات الأخرى أو تؤثر فيها ، وإنما كان يأتي ذلك تدريجياً وفي رفق وهودة ، حتى أن الرومان أخذوا من الحضارة الأخرية الشيء الكثير ، مع أنهم كانوا الغزاة القاهمين

والحضارة الأخرية أيضاً مثل آخر نرفقه ، فقد بلغت تلك الحضارة في أوج مجدها مستوى رفيعاً في الاجتماع والنظم السياسية والاقتصادية والفنون ، وفتحت معظم شعوب العالم ، فكان لها فارس في الشرق ، ومصر في الجنوب والشعوب اللاتينية وفيليبيا في الغرب ، وانصلت بحضارات تلك البلدان وأثرت فيها غير أنه لم يعم زراع غنيف بينها وبينهم ، ولم تتلاش أية حضارة في تلك الحضارات من جراء ذلك الاختلاط ، ذلك لأن الأخرين لم يحاولوا توحيد امبراطوريتهم الواسعة المختلفة الأشكال والثقافات ، في شؤون السياسة الاقتصادية أو النظم الاجتماعية الأخرى . فقد كانت الحضارة الأخرية متساهلة كثيرة التساهل مع الشعوب الأجنبية التي دانت لها . وكذلك كان استعمار عصر الإحياء أو النهضة « الرينسانس » كل غاية التبادل التجاري في المحصولات وفتح الاسواق الأجنبية ، وأخذ المواد الخام ، وقد كانت تلك العلاقة الاقتصادية سلبية لم يعقبها أي فتح حربي ، فلم يقع نزاع بين الحضارات ، لأن أوروبا لم تكن في معداتها الحربية بأعظم شأناً من الهند أو الصين كثيراً

أما قصة الاستعمار الحديث في آسيا فهي معروفة مشهورة ، ابتدأت في أول الأمر بالمعاهدات التجارية بين الدول الأوروبية والأمراء الآسيويين كما حصل في الهند ويتضح تصادم الثقافات جلياً فاصعاً في الحركة الهندية الأخيرة التي ابتدأت تشق بعد أوائل

القرن العشرين ، فهي في الواقع ثورة واسعة ضد الحضارة الاوربية ونظمتها الاستعمارية فغاندي ينفخ في امته نعالجه الهندية لاكتشاف الروح الهندي المسمم والرجوع الى الحضارة الهندية واصلاحها والسعي بها الى اوج الحضارات الريفية . وقد استعمل الشباب الهندي المتعلم في نزاعه هذا كل أساليب الحضارة الاوربية في محاربتها والتخلص منها . ومن القريب حقا ان تحمل الحضارة الاوربية نفسها بذور حثتها وهلاكها

وقد ابتدأت الحركة التركية بالدعوة الدينية ، الاسلامية ، ثم قامت بحركة التجديد الغربية لكي تتحرر من العيب الاقتصادي والسياسي الذي لحقها من الحضارة الغربية . يقول المؤلف «ومن نتائج هذا النزاع ان آسيا أصبحت الآن تلمد فكرة الوطنية السياسية ، وهي فكرة غربية بلا جدال وقد دفعت هذه الفكرة باوروبا الى الحرب الماضية ، فاذالم تعمل اوروبا كل ما في وسعها لمساعدة هذه الشعوب الاسيوية للتخلص من طور الاستعمار الى الاستقلال التام من غير عنف ولا نزاع فان العالم سيشهد موجة وطنية كبرى تتلوها كارثة عظيمة ، تصحح مجانبها كارثة الحرب الكبرى شيئا تافها قبل الأثر »



اما استعمار افريقيا فقد ابتدأ عام ١٨٨٠ وكانت الدوافع اقتصادية من غير شك ، وكان الرحالة الاوربي او الوكيل التجاري لشركة من الشركات يذهب الى اواسط افريقيا ومعه الوان من الهدايا والسخ بقدما الامير الافريقي ثم يطلب منه امضاء معاهدة لا يفهم معناها ، مع الشركات التجارية ، ويفهم ان هذه المعاهدة ستدر على شخصه وولاده الرخاء والثروة ، وقد تم استعمار معظم بلدان افريقيا الوسطى عن هذه الطريقة الخداعة ، فتناهي حينما قام بالنيابة عن ملك البلجيكي بامضاء مثل تلك المعاهدة فاصبحت الكونغو مستعمرة بلجيكية وبهذه الطريقة استولت انكلترا وفرنسا على مستعمراتها في اواسط افريقيا وحينما نشب النزاع بين الدول الاوربية على تحديد اراضي مستعمراتها اتفقوا فيما بينهم على ان كل من امضى معاهدة مع امير من امراء افريقيا عن جزء من الشاطئ الافريقي ، فمن حقه الارض الموازية لذلك الشاطئ ، في داخل القارة الافريقية ، وهنا يقول المؤلف :

« ان الطريقة التي اتبعت في الاستيلاء على تلك الاراضي الافريقية كانت في معظم الحالات وحشية مروعة في الوحشية ، وان تلك الطرق المتبذلة ، قد تركت من غير شك أرها السوء في العلاقة الراهنة بين سكان افريقيا وأوروبا ، فان تلك السبل الدنيئة ان دلت على شيء ، فهي تدل على ان الحضارة الاوربية تعامل الرجل الافريقي مثل معاملتها لاي حيوان ابكم ، ذلك لان الرجل الاوربي يعتقد انه له الحق في الاستيلاء على ارض الافريقي بالقوة او بالخداع »